٥ امرؤ القيس شاعر الطبيعة :

رمت الاحوال امرأ القيس في احضان الطبيعة ، فقضى فيها ومعها أكثر أيامه وأجملها ، حتى أصبحت الطبيعة ، حيّة وصامتة ، جزءاً من ذاته وخديناً لحياته . وقد تأملها مليّاً حتى وقف على أخفى خطوطها ، ورأى ما عظم فيها وما دقّ ، من الأفق العريض الى عيون الوحش المتفرّقة حول الخباء كالخرز ، فهام بها وحلّت من فؤاده مكاناً رحباً حتى تمثّلت له في كل كلام يقوله ، فوصفها وأكثر من وصفها .

١ – موضوعات وصفه : شمل وصفه **الطبيعة الحيّة** ولاسيا **الفرس والناقة** . فكان لهما المحل الاول من وصفه ؛ وقد جاء في اثناء هذا الوصف أوصاف لحيوانات شتى كالثور الوحشي ، والحمار الوحشيّ وكلب الصيد ، والظليم ، وغيرها . وشمل وصف امرئ القيس ايضاً **الطبيعة الصامتة** من ليل ، وغيث ، وبرق وما الى ذلك .

٢ – عوامل ابداعه : وكان امرؤ القيس شاعراً فطرياً ينزع نزعة المصوّر الحاذق الذي اجتمعت له ملكة التمثيل وملكة البيان ، وتوفرت له أفانين التصوير والتلوين والتعبير ، فكان له من فطرته ، واحساسه القويّ ، وكثرة مشاهداته ، ودقّة ملاحظاته ، ما جعله فريداً في هذا الفنّ .

٣ – ميزات وصفه : ومن ميزاته في وصفه أنّ قوام الصورة عنده على حدّ ما قال الدكتور سيد نوفل ، « **الحب للطبيعة** ، فمنها المواد والالوان ؛ **والصدق** فلا مُبالغة ولا إحالة ؛ **والبساطة** فلا تكلّف ولا تصنّع في الالفاظ والمعاني ؛ **والايجاز** فلا حشو ولا فضول ؛ **والدقّة** فلا كلمة نابية ولا أخيلة غير مطابقة ، وإنما جوّ محكَم يسود الوصفَ كله » .

فخيال الشاعر واقعيّ يرتكز على الحقيقة ، ويتناول **المألوف** من المناظر ويرسم

Scanned by CamScanner

منه خطاً او خطين ، واذا الصورة تبدو بملامحها كأنها كانت كاملة بجميع جزئياتها وتفاصيلها ، واذا الصورة رائعة في إيجازها واتساع إيحائها ، واذا ذلك « اللمح » الشعري أبلغ من كل تفصيل :

– وَقَدْ أَغْتَدِي وَٱلطَّيْرُ فِي وُكُنَاتِهَا   بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ ٱلأَوَابِدِ هَيْكَلِ
– كَأَنَّ عُيُونَ ٱلوَحْشِ حَوْلَ خِبَائِنَا   وَأَرْحُلِنَا ٱلجَزْعُ الذي لَمْ يُثَقَّبِ

وهذا المألوف الذي يتناوله الشاعر في وصفه ، يتناوله بشغف ، لانه يثير في نفسه ما لا يثيره في نفس غيره ، ويحس بمظاهره إحساساً لا عهد به لغيره ، فيتمثله تمثلاً فذاً ويضفي عليه من ذاتيته ، ثم يعبر عنه واذا هو خلق جديد فيه من قلب الشاعر ونفسه دفء وحياة ، واذا المألوف يصبح طريفاً يستوقف النظر في الصورة حيث لم يكن ليستوقفه في الوجود الخارجي ، ويثير الاعجاب على بساطته وضآلة خطره . وهكذا تصبح صور امرئ القيس بعيدة شديدة البعد عن الصور المنقولة عن الطبيعة نقلاً آلياً جامداً . فنحن نلمس شغف امرئ القيس بفرسه عندما يترسم جميع حركاته وأشكاله ويقول :

وَرُحْنَا يَكَادُ ٱلطَّرْفُ يَقْصُرُ دُونَهُ   مَتَى مَا تَرَقَّ ٱلعَيْنُ فِيهِ تَسَهَّلِ
فَبَاتَ عَلَيْهِ سَرْجُهُ وَلِجَامُهُ   وَبَاتَ بِعَيْنِي قَائِماً غَيْرَ مُرْسَلِ

ونلمس جمال التلوين الحي الذي ينبض دقة وروعة في قوله :

---

(١) الوكنات ج وكنة وهي عش الطائر . المنجرد : القصير الشعر الماضي في السير . الاوابد : الوحوش . الهيكل : الضخم . يقول : وقد اخرج مبكراً على فرس عظيم سريع ، لا يكاد يطلق في إثر الوحوش حتى يدركها ، باعثاً فيها الجمود ، فتقف كأنها مقيدة (٢) الارحل ج رحل وهو سرج البعير . الجزع : الخرز اليماني وهو الذي فيه سواد وبياض . (٣) يقصر دونه : لا يبلغ الغاية من التمتع بمرآه . متى ما ترق . . . . : أي لا تكاد العين تنظر الى اعلاه حتى يجذبها اسفله ، وذلك لحسنه التام (٤) أي بات ذلك الفرس وسرجه ولجامه عليه ، فهو ابداً مستعد للسير ، لا ينال السير والتعب منه . وبت وهو في عيني ، لا يفارقني على حاله من الأهبة

Scanned by CamScanner

فَعَنَّ لنَا سِربٌ كَأَنَّ نِعَاجَهُ   عَذارى دُوَّارٍ في مُلاءٍ مُذَيَّلِ [1]
فَأَدْبَرْنَ كَٱلجِزْعِ ٱلمُفَصَّلِ بَينَهُ   بِجِيدٍ مُعِمٍّ فِي ٱلعَشِيرَةِ مُخوِلِ [2]

ونلمس الحياة في أشد حركتها إذ يقول :

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعاً   كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ ٱلسَّيلُ مِنْ عَلِ [3]

وهذه الحياة التي يبعثها الشاعر في موصوفاته والتي يقويها **بالحوار والقصص** ، نلمس فيهـــا احياناً **مسحة من الحزن والتأمل** تنتقل من صدر الشاعر الى صدر الطبيعة ، **واذا في الطبيعة فلسفة وافكار هي صدى فلسفته وافكاره**، واذا في الطبيعة جوٌ من الحزن أو شبح هائل يورث الحزن والجزع :

وَلَيلٍ كَمَوْجِ ٱلبَحرِ أَرْخَى سُدُولَهُ   عَلَيَّ بِأَنْوَاعِ ٱلهُمُومِ لِيَبْتَلِي [4]
فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ   وَأَرْدَفَ أَعجَازاً وَنَاءَ بِكَلْكَلِ [5]
أَلا أَيُّهَا ٱللَّيلُ ٱلطَّوِيلُ أَلا ٱنْجَلِي   بِصُبْحٍ وَمَا ٱلإِصْبَاحُ مِنكَ بِأَمْثَلِ [6]

في هذا كله يظهر امرؤ القيس شاعر الطبيعة ، وشاعر العبقرية الـــتي تتناول المألوف فتنفخ فيه من روحها وتخلقه خلقاً جديداً . فقد جمع بين الايجاز والدقة فكان وصفه على دقته ذلك **« اللمح » الشعري** الرائع .

---

(١) عنَّ : عرض . السِّرْب : قطيع البقر . النعاج : البقر الوحشيّ . عذارى دوارٍ : أبكار يدُرن حول صنم . المُلاء المذيّل : الثياب الطويلة الذيل (٢) أي : أن تلك النعاج هربنَ متفرّقات ، وقد اشبهنَ في هربهنَّ الخرز اليماني الذي فُصّل بينه ببياض وسواد . وقد جعل ذلك الخرز في جيد رجل كريم الاعمام والاخوال كنايةً عن قيمته الكبيرة (٣) المِكرّ : الكثير الإقبال . المِفرّ : الكثير الإدبار . (٤ ، ٥ ، ٦) السدول ج سِدل : الستور . ليبتلي : ليختبر تمطّى : تمدّد . الصُّلب : الظهر . أردفَ : أتبع . الأعجاز ج عجُز وهو المؤخّر . ناء : وزح . الكلكل : الصدْر . الأمثل : الافضل . الجندل : الصخر . — يقول : جاء الليل وأرخى عليّ ستور ظلامه مبطنة بأنواع الهموم ليختبر صبري ، واذا هو ليلٌ مكروب ، طويل الاواخر ، رازح الاوائل ، لا يتنحّى إلا ليعقبه يوم مثقل مثله بالهموم .

٦ فن امرئ القيس :

(١ — **مصدر فنّه** : أرسل امرؤ القيس كلامه عن سجيّة وسليقة، واذا هو شعرٌ سامي الفن في بساطته وطبيعيّته. وفنّه هذا لا يقوم على انسجام الافكار وتساوقها بشكل منطقيّ، ولا على وحدة تأليفية تجمع بين الاجزاء، لانّ شعره فطريٌ لا منطق فيه إلا **منطق العاطفة والذكرى**، ومنطق الحياة غير المقيّدة التي تجري على غير سنَن التصنّع. ولا يقوم فنّه كذلك على الاخيلة الغريبة، ولا على الصناعة البديعيّة العلمية التي تقصد الصوَر عمداً وتُركّبها تركيباً تتداخل فيه الالوان والاشكال.)

إنما يستقي الشاعر فنه من نفسه التي اصطبغت بصبغتين متباينتين صبغة البداوة وصبغة الحضارة، وتسلحت بقوّة التمثيل والتعبير، فألقت على ما تمثّلته رداء منسوجاً من رقة الحضارة وصفاء البداوة، واذا الشعر جميلٌ، يتجلى سحره قبل كل شيء في **التشبيه** كما يتجلى في الاستعارة والكناية. ولكن التشبيه هو العنصر الاساسي واليه مرجع الاستعارة.

٢ — **التشبيه** : أولع امرؤ القيس بالتشبيه أشد الولع، وذلك (عن طبع لا عن صنعة او تعمُّل، فأتاه التشبيه عفواً،) وكانت مادّته من الطبيعة البدوية أو من حياة الترف. وكان التشبيه بين يدي الشاعر (وسيلة يتذرّع بها، في جميع أحواله، للتعبير عن أدقّ المعاني وعن أوسعها نطاقاً،) عن أقربها وعن ابعدها مجالاً؛ واذا التشبيه يُكسب الكلام دقة واقعية وألواناً ناصعة :

— وَيَخْطُو عَلَى صُمٍّ صِلَابٍ كَأَنَّهَا   حِجَارَةُ غِيلٍ وَارِسَاتٌ بِطُحْلُبِ ١
— لَهُ أَيْطَلَا ظَبْيٍ، وَسَاقَا نَعَامَةٍ   وَإِرْخَاءُ سِرْحَانٍ، وَتَقْرِيبُ تَتْفُلِ ٢

(١) الصُّم الصِّلاب : أي حوافره. الغِيل : الماء الجاري، على الحجارة. الوارسات : المصفرّة التي غشاها الطُّحلُب، وهو نبات يكون على وجه الماء المزمن كنسيج العنكبوت. (٢) أيطلا الظبي : خاصرتاه. الارخاء : الجري الذي فيه سهولة. السرحان : الذئب. التقريب : الجري تُرفع فيه اليدان معاً وتوضعان معاً. التّتفل : ولد الثعلب. يقول : ان لفرسه ضُمور خاصرتي الظبي، وصلابة ساقي النعامة، وإرخاء السرحان في عدوه الخفيف، وتقريب التّتفُل في جريه الشديد.

Scanned by CamScanner

– إذَا مَا جَرَى شَأْوَيْنِ وَٱبْتَلَّ عِطْفُهُ   تَقُولُ هَزِيزُ ٱلرِّيحِ مَرَّتْ بِأَثْأَبِ (١)

ويمتاز تشبيه امرئ القيس بما فيه من **الاكتفاء والتلميح** على الطريقة الرمزية ، فالشاعر يعرض للاشياء لمحاً، ويترك في تشبيهه جانباً خفياً غامضاً يزيده جمالاً وأثراً، وذلك انه ، بقوة تصوّره ، يدرك بلمحة جزئيّات الشيء الذي يصفه ، ثم يجمع كل ما أدركه في تلك اللمحة ، في عبارة تعبّر بلمح ايضاً ، وتحتاج الى أن يتأملها القارئ ملياً وأن يتقصّى ، بقوّة التصوّر . الى جميع جزئيّات المشبّه به حتى يصل الى ما أدرك الشاعر ، كما في قوله :

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعاً   كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ ٱلسَّيْلُ مِنْ عَلِ

ولامرئ القيس في التشبيه طرُق جمّة تصطبغ في مجملها بهذه الصبغة ، وله في ذلك **ابتكارات كثيرة** ملكت على الاقدمين ألبابهم ، فراحوا يتناقلونها معجبين ويوغلون في تفسيرها والتعليق عليها . ومن تلك الابتكارات المشهورة تشبيهه المرأة ببيضة الخدر ، وسيرَه الخفيف بخفّة حباب الماء ، والفرسَ بقيد الاوابد ، وما الى ذلك مما يتجلى في جميع قصائد الشاعر .

٣ – الموسيقى : وفضلاً عن كل ذلك يتجلى سحر الفن عند امرىء القيس في **الموسيقى التي تتصاعد من الفاظه وتراكيبه** التي تجلت فيها ايضاً حياته بمـــا فيها من امتزاج الحاضرة بالبادية ، وبما فيها من إرنان ولوعة وحنين ، ومن اندفاع وسخط وهياج . فتلك الالفاظ والتراكيب تؤدي بموسيقاها ما أدّته من معنًى ، وتعبّر بتلك الانغام عن حالات الشاعر المختلفة في مختلف أطوار حياتـــه ، وفي مختلف نزعات نفسه .

– الالفاظ : اما الالفاظ فقد جمعت خشونة البادية الى لين الحاضرة، وتوفّر في اختيارها **الذوق الفني** ، حتى رقّ ما ظهر فيها من صلابة احياناً ، وعذبت رنّتها الناجمة عن ائتلاف مخارج حروفها ، فحدّثت الاذن والقلب دائماً وان استغلق على العقل فهمُها احياناً :

---

(١) الشأوان مثنى شأو وهو الشوط السريع . ابتـــلّ عِطفه : سال عرقه على جانبيه . هزيز الريح : صوتها . الأثاب : شجَر .

بعَيْنيَّ ظُعنُ ٱلحيِّ لمَّا تَحَمَّلُوا لدَى جَانِبِ ٱلأفلاجِ مِنْ جَنْبِ قَيْمُرَا [١]

– **موافقة المبنى للمعنى** : فالشاعر ينحتُ ألفاظه وقوافيه من خـير مقطع ويطرب لها ؛ وهو يرصفها ببراعة واذ تراكيبه منسجمة انسجاماً محكماً تمتدُّ او تنقبض مع امتداد نفسه او انقباضها . فاذا ساورته الاحزان وثقلت عليه وطأة الدهر تصاعدت زفراته بشعر يطول بحره وتتتابع الفاظه كالكابوس ، وذلك يبدو بجلاء في وصف الشاعر لليل .

واذا اخذته سَورة الفروسيَّة تسارعت الفاظه متواثبة متدافعة :

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقبِلٍ مُدْبِرٍ مَعاً كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ ٱلسَّيْلُ مِنْ عَلِ

او راحت في الميدان مع الشاعر السابح عـلى ظهر ناقةٍ « سُلحوب » ترافق الجري :

وَٱليَدُ سَابحَةٌ وَٱلرجلُ ضَارِحَةٌ وَٱلعَيْنُ قَادِحَةٌ وَٱلمَتْنُ سُلحُوبُ [٢]

واذا أتاه خـبر مقتل ابيه دبَّت الرهبة في شعره فسكنت قوافيه وجمدت مفاصله ، وتصاعدت منه موسيقى كدويٍّ عميق هو دوي القضاء والهول والتهديد :

تَطَاوَلَ ٱللَّيلُ عَلَينَا دَمُّونْ دَمُّونُ إنَّا مَعْشَرٌ يَمَانُونْ
وَإنَّنَا لِأَهْلِنَا مُحِبُّونْ

وهكذا رافق شعر امرئ القيس حياته بموسيقاه فكانت أنغاماً شتى لتلك النفس الشعرية . إلا ان هذه الموسيقى لا تخلو من اصوات ناشزة تنجم عن بعض الالفاظ النابية ، او عن الجواز الشعري الجاهلي المعروف الذي يجعل « مفاعلن » عوضاً عن « مفاعيلن » في حشو الطويل :

(١) الظعن : ج ظعينة : المرأة ما دامت في الهودج . الافلاج ج فلج وهو اسم بـلد . قيمرُ : مكان به قلعة بين الموصل وخلاط . يقول : كان ظعنهم بمرأى مني . . . (٢) اليد سابحة : اي اذا جرى ومدّ يديه فكأنه سابح في الماء . ضارِحة : أي ضاربة الارض وحافرة فيها . قادحة : غائرة . المتن سُلحوب : أي الظهر أملس .

Scanned by CamScanner

الفصل الثاني

طَرَفة بن العَبْد (٥٤٣ ـ ٥٦٩)

١ً حياته : وُلد طرفة بالبحرَين، ومات أبوه وهو طفل، فكفله اعمامه وأساءوا تربيته وهضموا حقوق أمّه . فاندفع الطفل وراء اهوائه يلهو ويسكر ويبذّر . فطرده قومه لذلك، فراح يضرب في البلاد حتى بلغ اطراف جزيرة العرب . ثم عاد عن غيّه ورجع الى قومه يرعى إبل معبد اخيه لأبيه فسُرقت الابل لانصرافه الى النظم، فنصره سيّدان من قومه امتدحهما فاستطاع أن يردّ الابل . ثم عاد الى حياة اللهو . بلغ في تجواله بلاط الحيرة فقرّبه عمرو بن هند، الا انّ لسانه حال دون بقائه، فهجا صهره وهجا الملك، فأوقع الملك به . قُتل وهو دون الثلاثين نحو سنة ٥٦٩ .

٢ً آثاره : لطرفة ديوان شعر اشهر ما فيه المعلّقة، نظمها الشاعر بعد ما لقيه من ابن عمه من سوء المعاملة، وما لقيه من ذوي قرباه من الاضطهاد. في المعلقة ثلاثة أقسام كبرى: القسم الغزلي، والقسم الوصفي، والقسم الإخباري . ـ من اغراض شعره الوصف والعتاب والشكوى والغزل والهجاء والحكمة .

٣ً شاعر الفلسفة الشخصية :

ـ عوامل فلسفته : من عوامل فلسفته ضعف عقيدته الدينيّة، وبيئته المادّية، وتربيته السيّئة، وثروته وصعوبات حياته، ثم نزعته الفطرية الى الشيَم العربيّة الكريمة .

ـ نزعته في فلسفته : فلسفة تضطرب بين الإباحيّة المادّية والنزعة المثالية . وتصطبغ بصبغة اليأس والحزن .

ـ مذهبه في فلسفته : يرى طرفة، من الناحية الاجتماعية، أنه لقومه ولكل من يحتاج اليه قبل ان يكون لنفسه . ويرى، من الناحية الذاتيّة، انه لا بدّ من الحرص على كرامة النفس وتوفير المتعة للجسد في شرب الخمر والحب : جاعلاً اساس فلسفته المادية الانقياد للعاطفة والاهواء انقياداً يضعف فيه الايمان ويبعث فيه الشك في الخلود .

ـ قيمة فلسفته : فلسفة طرفة حيّة لا تخلو من رفعة، ولكنها فلسفة متناقضة، واهية الأساس، مهدّمة .

٤ً شاعريّة طرفة وفنّه :

ـ العقل والعاطفة : طرفة حديد الذهن تطغى العاطفة على عقله، وشعوره حارّ لا يخلو من اقتصاد .

ـ الخيال : خياله قويّ واقعي ماديّ يجنح الى القصد والصدق ويعتمد على التشبيه الحسّي .

ـ الاسلوب : اسلوبه متنوّع، يجمع بين قوّة مُضَر ورقّة ربيعة .

ـ التراكيب : لا تخلو من تعقيد ومعاظلة .

Scanned by CamScanner

١ - حياته :

عمرو بن العبد الملقب « طرفة » من بني بكر بن وائل ؛ وُلد حوالي سنة ٥٤٣ في البحرين على الخليج الفارسيّ من أبوين شريفين : العبد البكريّ الشاعر ، وودة بنت عبد المسيح . وكان له من نسبه العالي شبه إطار من أرباب الشعر فجدُّه وأبوه وعمّاه المرقّشان الاكبر والاصغر ، وخاله المتلمّس كلهم شعراء .

١ - **اليتيم المهمَل** : مات ابوه وهو بعد حدَث فكفله أعمامه إلا انهم أساءوا تربيته ، وضيّقوا عليه فهضموا حقوق أمه البعيدة عن قومها . فتهدّدهم الشاعر بقوله :

ما تنظرونَ بحقِ وَردةَ فيكمُ　　صَغُرَ البَنونَ ورَهطُ وَردَةَ غُيَبُ
قد يبعثُ الأمرَ العظيمَ صغيرُهُ　　حتى تظَـلُّ له الدِّماءُ تصبَّبُ
والظُّلمُ فرَّقَ بينَ حيَّيْ وائلٍ :　　بَكرٌ تُساقيها المنـايا تَغلِبُ [١]

٢ - **الطفل اللاهي** : ما كاد طرفة يفتح عينيه للحياة حتى قذف بذاتـه في أحضانها يستمتع بملذّاتها من غير ما حرج . فلها وسكِر ولعب مبذّراً حتى الاسراف ، مكابراً لا يريد الارعواء .

٣ - **الغلام الطريد** : واذ ظل مكابراً لا يرعوي عن تبذيره وطيشه ، اضطُرَّ قومه الى طرده :

وما زالَ تَشرابي الخمورَ ولذَّتي　　وبَيعي وإنفاقي طَريفي ومُتلَدي [١]
إلى أن تحامَتني العشيرةُ كُلُّهـا　　وأُفرِدْتُ إفرادَ البعيرِ المُعبَّدِ [٢]

فراح عندئذٍ على ناقته يضرب في البلاد ، فتارةً يغزو وطوراً يأوي الى مغاور الجبال ، حتى بلغ اطراف جزيرة العرب ؛ وقد يكون بلغ الحبشة .

---

(١) يشير الى حرب البسوس　(٢) الطّريف : الحديث المكتسب من المال . المُتلَد : المال القديم الموروث　(٣) تحامَتني : توقّتني واجتنبتني . المعبّد : المطليّ بالقطران لجربه .

٤ ـ **الشاعر الراعي :** وبعد أن ذاق من الايام علقماً تأوّب الى عشيرته وفي عزمه ان ينقاد لأقطابها فيركن الى الحياة الرشيدة الحكيمة ، حياة قد تهيّأ له أن يعرف قيمتها في ما انتابه من عنَت التشرُّد وذُلّ الغربة :

كنتُ فيكم كالمُغطِّي رأسهُ   فانجلى اليومَ قِناعي وخُمُرْ[1]

فاضطرّته الحال ان يرعى إبل معبد ، أخيه لأبيه . ولكن أنّى للشاعر الشاب الفخور بنفسه وبقومه أن يُحسن رعاية الابل . فأهملها للنظم . ففقدت ، فطالبه معبد ، فلجأ الى ابن عمٍّ له اسمه مالك فخذله ولامه على ما أتى وما لم يأتِ من سوء (المعلقة : ٧٦ ـ ٧٩) ؛ فنصره سيّدان من قومه امتدحها . فردّ إبل أخيه ومال على ما تبقّى يُحيي به حياته السالفة من لهو وعبث ، إرضاء لشبابه النَّهِم وكبريائه المستحكمة ، غير آبهٍ لنُصْحٍ ولا لزجر (المعلقة : ٥٥ ، ٥٦) .

٥ ـ **نديم الملوك :** ومسّته الحاجة مرّةً ثانية فترك قومه ، وطاف في البلاد ، حتى بلغ بلاط الحيرة حيث كان خاله المتلمّس وصهره عبد عمرو بن بشر . فأكرمه الملك عمرو بن هند وقرّبه . إلا أن لسان الشاعر لم يتورّع من هجاء صهره لتصرّفه السيّئ مع زوجته أخت الشاعر ، فهجاه بقوله :

ولا خيرَ فيــه غير أَنَّ له غِنًى   وأَنَّ له كَشحاً إذا قامَ أَهضما[2]

وهجا الملك ايضاً وأخاه قابوسا :

فليتَ لنا مكانَ المَلْكِ عمرٍو   رَغوثاً حولَ قُبَّتنــا تَخورُ[3]
لعَمْرُكَ إنَّ قابوسَ بنَ هِندٍ   لَيَخْلِطُ مُلكه نَوْكٌ كثيرُ[4]

---

(١) الخُمُر : الأستار . يقول : كنت قبلاً اعمى البصيرة مضللاً ، وقد زال الآن ضلالي وعرفت الحقيقة (٢) الأهضم : النحيف اللطيف . وفي هذا القول تهكّم لان عبد عمرو بن بشر كان سميناً ؛ فوصفه الشاعر بلطف الخصر . (٣) الرّغوث : الناقة الحلوب . (٤) النّوك : الحُمق .

Scanned by CamScanner

ولداعي غضب وشى عبد عمرو بالشاعر فأوغر صدر الملك على الشاب المستهتر فأوقع به .

٦ ــ **الشاب القتيل** : قُتل طرفة وهو دون الثلاثين حوالي سنة ٥٦٩ . وذلك ــ على ما يُروى ــ أن عمرو بن هند كتب لكل من طرفة والمتلمّس ، وكان في نفسه موجدة عليهما ، كتاباً الى عامله بالبحرين ، وأوهمهما انه أمر لهما بعطاء يجريه لهما على يد عامله ؛ وقال لهما أن يمضيـــا اليه في الحال . واذ كانا في الطريق شكّ المتلمّس في كتابه ففضّه وإذا فيه أمر بقتله . فمزّق الكتاب وألقاه في نهر هناك ، ثم قال لطرفة ان يطّلع على مضمون كتابه هو ايضا فلم يفعل ، بل سار حتى قدم عامل البحرين ودفع اليه الكتاب . فلما وقف عليه أوعز الى طرفة بالهرب لما كان بينه وبين الشاعر من نسب ؛ فأبى ، فحبسه الوالي ، وكتب الى عمرو بن هند قائلاً : « ابعث الى عملك من تريد فإني غير قاتله » . فبعث ملك الحيرة رجلاً من تغلب واستعمله على البحرين ، فجيء بطرفة اليه فقال له : « إني قاتلك لا محالة فاختر لنفسك ميتة تهواها » . فقال : « ان كان ولا بدّ فاسقني الخمر وافصدني » . ففعل به ذلك فما زال ينزف دمه حتى مات .

وقد رثت الخِرنِق أخاها طرفة وبكته بكاء شديداً ؛ ومما رُويَ لها فيه قولها :

عَدَدنا له سِتّاً وعشرينَ حِجَّـــةً   فلما توفَّاها استوى سَيِّداً ضَخما
فُجِعْنا به ، لما رَجَونا إيابَـــه   على خيرِ حالٍ لا وليداً ولا قَحْما

٢ً آثاره :

١ ــ **ما هي** : لطرفة **ديوان** فيه ما يناهز ٦٥٧ بيتاً من الشعر . وقد شرحه يعقوب بن السكّيت في القرن التاسع ، والأعلم الشنتمري في القرن الحادي عشر ،

Scanned by CamScanner

٣ – اغراض شعره وميزاتها :

« طرفة يشترك – على حد ما قال البيضاوي – مع اكبر شعراء الجاهلية في خصائصهم الفنية العامة من طبَعيّة وصف وجمال سبك ؛ ويمتاز عنهم جميعاً بحرارة العاطفة وحرية الفكرة وعمقها . ولا يقف على الوصف الخارجي فيبدع مثل امرئ القيس ، ولا يعرض الافكار بترتيب ولكن بجمود مثل زهير ، ولا يبالغ احياناً في التعبير عن الشعور مثل النابغة ، ولكنه ينفث في شعره حياة غنية محبّبة تزيد الصورة حياةً والفكر عمقاً ، فتبدو فيها شخصية الشاعر القوية بطرافتها ، وعدم تحرُّجها ، وسِمَتها الاباحية » . ولنستعرض ابواب شعره ذاكرين أهم ميزاتها :

١ً الوصف : وصف طرفة كوصف الجاهليين صورة للموصوف **دقيقة** الرسم من ذلك وصفه للحدوج (المعلّقة ٣ – ٥) ، والناقة (١١ – ٤٥) ، واللهو (٤٨ – ٥٥) .

وفضلًا عن ذلك يمتاز وصفه بالطّبَعيّة وجودة **التشبيه الواقعي** المستمد من الطبيعة (١١ – ٤٥ ، ٩٠ – ٩٥) .

٢ً العتاب والشكوى : في هذا الباب **رقّة ولين وصدق وانفة** : إن شكا فذلك لا عن عجز وذِلّة بل لفرط ظلم ذوي القربى وهو الذائد عنهم (٨٠ – ٨٣) .

٣ً الغزل : في غزله **رقة البدوي** ولكنه لا يجاري غزل امرئ القيس في التطرف (١ – ١٠ ، ٥٠ الخ) .

Scanned by CamScanner

٤ً الهجاء : للشاعر في الهجاء نُتف أشهرها ما جاء في عمرو بن هند وأخيه قابوس ثم في صهره عبد عمرو . ومن صفات هذا الهجاء **الجرأة وحدّة اللسان، والاستخفاف والسخرية .**

٥ً الحكمة : لطرفة ابيات حكمية هي وليدة احداث حياته، وأشهرها قوله :

وظُلمُ ذوي القُربى أشدُّ مضاضةً   على المرء من وَقعِ الحسامِ المهنَّدِ[1]

ستبدي لكَ الأيَّامُ ما كنتَ جاهلًا   ويأتيكَ بالأخبارِ مَن لم تُزَوِّدِ

***

تلك أهم اغراض شعر طرفة ، وفي درسنا لمعلَّقته ندرك ما فيهـــا من فلسفةٍ شخصية ، ومن فنّ ، وتاريخ .

٣ً طرفة شاعر الفلسفة الشخصية :

طرفة شاعر قويُّ الشخصية ، حر التفكير ، صريحٌ في قوله وفي عمله . وقد اجتمعت له حكمة الشيوخ وطيش الشباب ، فشعر بالحيوية تملأ قلبه وتسري في جميع شرايينه ، ونظر الى ذلك نظرَ المتفحّص الذي يريـــد العمل عن فلسفة[2] وتفكير ، والتصرف في الحياة عن عقيدة .

١ ــ عوامل فلسفته : وكان خالياً من العقيدة الدينية ، يضطرب في بيئة مادية لا ترمي الى ابعد من المادة ، وساعد ذلك تربية سيّئة لا توازن فيها فزاد ذلك في سيطرة الاهواء؛ وثروة ومآثر خلّفها له ابوه فنفَخَتْه اعتداداً بالنفس وكِبراً ، وخلقت فيه ايماناً بصحة ما يرى وما يعمل ، وفساد رأي من يخالفه ، وملأت يده بما يُرضي

(١) المضاضة : الحرقة في القلب . (٢) المراد بالفلسفة هنا طريقته الخاصة في الحياة لا الفلسفة بمعناها الصحيح .

الاميال النهمة في عيشة للخمر واللهو فيها حظ كبير ؛ والى ذلك صعوبات جمة اذاقته ألماً وأظلمت الحياة في عينيه من ظلم ذوي قرباه الذين هضموا حقوق أمه طمعاً بمال أبيه ، ومن طرده وانفراده « كالبعير المعبّد » ؛ ومن هذه العوامل نزعة فطرية وراثية الى الشيَم البدوية الكريمة من شجاعة وكرَم ونجدة ، وإباء الضيم .

نزعته في فلسفته : شعر طرفة بما في نفسه من نزعة مثالية وثّابة الى العلى والى اختيار الارفع والاصلح ، وبما في جسده من اندفاع نحو الشهوة ، ولم يرَ من مُوجب لاتباع المثالية دون الشهوة ، لان اختيار الاولى وترك الثانية يرتكزان على إيمان بالماورائيّات ، وقد غشّت الاهواء نظر الشاعر عن الحقائق الازلية وأضعفت ايمانه بها ، فضلّ طريق الحقيقة معتَقَداً وعملاً . **واذا فلسفته تضطرب بين الاباحية المادية والنزعة المثالية**، وتصطبغ بصبغة اليأس لسرعة زوال الحياة والحرص على مطاردة الزمن الهارب باللذات الممتعة يؤيد ذلك الم من الحياة ومما ذاقه من قسوة قومه ومن تشرده وشقائه .

٣ — **مذهبه في فلسفته** : كان يرى في الموت أمراً لا بدّ منه ينزل بكل انسان بالغني والفقير والكريم والبخيل والشجاع والجبان . فاذا كان كذلك ، فلمَ لا يروي الانسان نهمه من لذات الحياة الهاربة، فيرضي نفسه بما وجب عليه من النجدة، وبذل المال للفقير الملهوف ، وتلبية داعي الشجاعة والاقدام ، ويشبع تهافت جسده على ما يتاح له من المُتَع قبل فوات الاوان؟

ألا أيُّهاذا اللائمي أشهدَ الوغى ... وان أحضر اللذات هل أنت مخلدي[1]
فإن كنت لا تسطيع دفع منيّتي ... فدعني أبادرها بما ملكت يدي
لعمرُكَ إنّ الموتَ ما أخطأ الفتى ... لكالطِوَلِ المُرخى وثِنياه باليَدِ[2]

(١) اللائمي اشهد الوغى: يا من تلومني على الحرب واللذات؛ هل أنت تخلدني ان انصرفت عنها .
(٢) ما أخطأ الفتى : ما مصدرية زمنية، أي مدّة إخطائه الفتى . الطِوَل : الحبل تُربَط به الدابة. ثِنياه : طرَفاه . يقول : ان الموت لا ينجو منه احد وان ابطأ احياناً في حلوله .

Scanned by CamScanner

أرى قبر نحّام بخيلٍ بماله كقبر غويٍّ في البطالة مُفسدِ[1]

ومذهبه هذا يتضمن قسمين : قسما متعلقاً بحياته الاجتماعية، وقسماً متعلقاً بحياته الذاتية :

١ً حياته الاجتماعية : يرى طرفة ، بالنظر الى الحياة الاجتماعية ، انه لقومه قبل ان يكون لنفسه ، سواء في الحرب أم في السلم . وهو يشعر بهذا الواجب شعوراً قوياً ، فيندفع له مغامراً ملبياً داعي القوم دون أي ابطاء :

اذا القومُ قالوا : «مَن فتىً؟ خِلتُ أنني عُنيتُ فلم أكسلْ ولم أتبلّدِ

وهو لكل من يحتاج اليه : يتحرّى الاماكن العالية ، يُقيم على ذراها فيراه السائل ويدعوه المُستنجد ، فللمعوزين ماله وللمنكوبين ساعده :

ولستُ بحلّال التِلاع مخافةً ولكن متى يسترفدِ القومُ أرفدِ[2]

وهذا القسم بجمله وليد نزعة الشاعر المثالية ، بخلاف ما سنجده في القسم الذي يليه .

٢ً حياته الذاتية : طرفة ينظر في حياته الذاتية الى نفسه وجسده .

– النفس : انه يحرص على كرامة النفس العربية البدوية فيوفر لها كل ما يضمن عزتها . فإن حالف أماكن اللهو يألف مجالس الشيوخ :

وان تبغِني في حلقة القوم تلقني وان تقتنِصني في الحوانيت تصطدِ

وهو كريم إذ لا معنى للبخل مع الموت ، كما انه صاحب حزم وثقة بالنفس واعتداد بالذات ، وهو رجل شجاعة وإقدام وصدق في شرف محتد :

(١) النحّام : الحريص على جمع المال . الغويّ : الضالّ . يقول : لا فرق ، بعد الموت ، بين قبر الحريص على المال وقبر الجواد الذي يُطلق يده في سبيل ملاهيه . (٢) حلّال التلاع : يتحرى الاماكن العالية . يسترفِد : يطلب الرّفد وهو الإعانة .

Scanned by CamScanner

ولكن نفى عني الرّجال جراءتي عليهم وإقدامي وصدقي ومحتدي
اذا أبتدر القوم السّلاح وجدتني منيعاً اذا بلّت بقائمه يدي[1]

وهو إن نادم لا ينادم إلا الاشراف، وان شرب فعلى غناء القيان كما يفعل الاشراف؛ وهو يأبى، بعد الموت، إلا أن يُنعى كالسيّد المؤمّل :

فإن مُتُّ فانعيني بما أنا أهله وشُقّي عليّ الجيبَ يا ابنة مَعبدِ

— الجسد : ثم انه فضلاً عن كرامة النفس يحرص، في غير ساعات الجدّ على ان يهب جسمه ايضاً المتعة التي هي في عُرفه بريئة من الاثم؛ والاثم في نظره الالحادي هو العار الذي ينافي الكرم والشجاعة وسائر المثل الجاهلية البدوية.

فدعني أروي هامتي في حياتها ستعلم ان مُتنا غداً أينا الصدي[2]

يريد ان لا يموت وفي نفسه بعد ظمأ الى لذات الحياة.

***

طرفة لا يحبّ الحياة للحياة لانه يائس منها اذ يرى الموت لا يُبقي على أحد، وهو حزين بسبب سرعتها وزوالها، وهو مفكر لا ينقاد لحزنه والانعكاف عليه والبكاء الطويل الذي لا يجديه نفعاً، بل يعمد الى لذة الحياة التي يحبّها والتي يريد ان ينصرف اليها انصرافاً سريعا لان الحياة قصيرة. وهذه اللذة هي، في نظره، ثانوية وهو يتركها حالما يدعو واجب اجتماعي او واجب نفسيّ، وهي لا تمنعه من ركوب الاخطار والسعي الى الموت كما يسعى اليه الموت، فإباحيّته اذن لا تخلو من اقتصاد.

ولذّة الحياة قائمة على شرب الخمر والاستمتاع بالحبّ. وهو يبيع في سبيلها الطريف والمُتلَد، وينصرف اليها في اطمئنان، انصرافاً رقيقاً عن تفكير، لا ذلك

(١) بلّت : ظفرت . بقائمه : بمقبضه . (٢) الهامة : طائر يعتقد الجاهليون انه يخرج من جمجمة القتيل فيظل يشكو الظمأ حتى يرتوي بدم القاتل .

Scanned by CamScanner

الانصراف الغليظ ؛ وهو يستغرب لوم قومه له في حال كون الفقير والغني بقيا على حبّه : الاول لاحسانه والثاني لشرفه :

رأيتُ بني غَبراءَ لا يُنكرونني ولا أهلُ هذاكَ الطِّرافِ المُمدَّدِ (١)

٤ً قيمة فلسفته :

١ — هي فلسفة حيّة لا تخلو من رفعة : فهي قاعدة حياة الشاعر وصورة لها تنبض فيها عقيدته الشخصية ، وتنفخ فيها اهواؤه القوية . وهي ، من ناحيتها الاجتماعية ومن الناحية التي تتجلى فيها النزعة العربية ، رفيعةٌ ، جميلة . وهي مؤثرة لانها تبدو في الظاهر موفّقة بين نزعات الجسد ونزعات النفس ، موفّرة لكل منهما حاجته .

٢ — وهي فلسفة متناقضة : فإن هذا التوفيق بين نزعات الانسان المختلفة وهمي ، لانه لا يمكنه ان يتم ويتحقق الا باخضاع القوى السفلى للقوى العليا التي تميّز الانسان عمّا سواه من الاحياء الارضية . وقد لا يتمُّ هذا الاخضاع الا بتضحية بعض النزعات الشهوانية للحفاظ على نواميس عُليا تتعلّق بها قيمة الشخص الانساني العاقل . زد على ذلك ان التفاني في سبيل الغير والتعرُّض للمخاطر في سبيل الخير العام وما الى ذلك من شريف الاخلاق ، لا تُفسَّر تفسيراً وجيهاً بالالحاد وانكار الحياة الاخرى .

٣ — وهي فلسفة واهية الاساس : لانّ الشاعر لم يشعر بهذا التناقض لانه لا يعتقد بالخلود ، ويجعل مجرّد الشك برهاناً لكفره . والشك عنده مؤسس على العاطفة وحدها دون تفكير علمي صحيح وتحليل عميق ؛ ومن ثمّ فعدم ايمانه لا يقوم على اساس ثابت ، والفلسفة التي تقوم على عدم الايمان هذا واهية ايضاً .

٤ — وهي أخيراً فلسفة فاسدة مفسدة : لانها لا تفهم الحياة على حَسَبِ نواميسها

(١) بني غبراء : الفقراء . الطرّاف : البيت . الممدّد : الواسع العظيم .

Scanned by CamScanner

الثابتة التي لا تخضع لهوًى منحرف وان رافق ذلك الهوى خصالٌ في النفس حميدة. وهي من شأنها ان تدك اساس المجتمع وتجعل منه ميداناً للسكر والعربدة والفجور، وان تقود الى اليأس.

٥ شاعرية طرفة وفنه :

١ – **العقل والعاطفة :** فُطر طرفة على الشعر فنظمه وهو طفل ثم تغنى به في حياته. ولا عجب في ذلك فقد اكتنفه الشعر من كل جانب، كما رأينا، أضف أن طرفة كان مرهف **الذهن متوقد** الذكاء، ينزع عقله منزع التفكير الا ان هذا التفكير يكاد يكون واقعياً مادياً خالصاً، خفيف التأمل، ذلك لان **العاطفة والشعور عنده يطغيان على العقل؛ فشعوره حادّ**، قد شحذه الالم، وهو غني بالحياة صادق؛ ومع صدقه وحدّته **لا يخلو من اقتصاد**؛ فهو لا يندفع اندفاعاً أعمى، أو اندفاعاً صخّاباً مزعجاً.

٢ – **الخيال :** ثم ان طرفة قد جمع الى حدة الذهن وحرارة العاطفة **خيالاً قوياً واقعياً ينزع نزعة مادية حسيّة ويجنح الى القصد والاعتدال والصدق**. وقد غذته الصحراء وشحذه الضرب في الارض من مكان الى مكان. وتجلى خياله خاصة **في تشبيهاته**؛ فإن طرفة، كامرئ القيس وكسائر الشعراء الفطريين، يعتمد التشبيه في التعبير عن افكاره. الا ان تشبيهه دون تشبيه الملك الضِّليل روعة وفناً، وهو يشتقُّه من بيئته ومما رآه في تجواله. فإذا اراد الكلام على «حدوج المالكية» شبهها بالسفن التي كان يراها في الخليج الفارسي حيث نشأ؛ واذا اراد الكلام على سير الابل في الوادي شبهها بتلك السفن الكبيرة التي تمخر في البحر متهادية، فتشطره على نحو ما يشطر المفائل التراب بيده.

٣ – **الاسلوب :** أما **اسلوب** طرفة في معلّقته فليس بالأسلوب المنطقي في ترتيب الافكار؛ الا انه يتنوّع بحسب مقتضى الحال؛ فيشتدُّ في مواقف الشدّة كما يتجلى ذلك في وصف الناقة، ويلين في المواقف العاطفية والتعبير عن الشعور، وهكذا يجمع بين **قوّة** مُضر **ورقّة** ربيعة، **والجزالة** في جميع الاحوال.

Scanned by CamScanner

٤ – **التراكيب** : اما تراكيبه فلا تخلو من تعقد ومعاظلة أحياناً ، كما لا تخلو الفاظه، ولا سيما في وصف الناقة ، من خشونة وغرابة . الا انه يحسن اختيار اللفظة فيأتي تعبيره بليغاً جذاباً :

فإن تبغني في حلقة القوم تلقني   وان تقتنصني في الحوانيت تصطدِ

فهذه الملاءمة بين اللفظ والمعنى وهذا التوفيق بلفظة « تقتضي » وبعدها تصطدِ حتى تم بهما الطباق المقصود لعمل شعري يشهد ببراعة فنية .

هذا هو طرفة في معلقته فإنه قويّ الشاعرية صادق الفنّ، الا ان هذه الشاعرية ينقصها الاتزان والنضج؛ وهذا الفنّ ينقصه المنطق والاتساع .

الخاتمة :

يتجلى لنا طرفة ، مما تقدم شاعراً جليل الاثر على قلة ما بقي لنا من شعره ؛ والذي يزيد معلَّقته شأناً وفرةُ ما هنالك من الفوائد التاريخية ؛ فإنها تصوّر لنا ناحية واسعة من أخلاق العرب الكريمة كما تصوّر النزعة المادية في فئة من الشبان الجاهليين . زد على ذلك انّ هنالك وثائق تاريخية تطلعنا على ما كان للعرب اذ ذاك من ملاحة وسُفن تمخر في خليج فارس وتصعد دجلة ، ومن صناعات كوَشْر السفن في البحرين ، ودباغة الجلد في اليمَن ، وصناعة الورق في الشام ؛ كما تُطلعنا على حذق الروم للبنيان، وعلى ما كان لدى العرب من ادوات كالمبرد والعلاة وا لمرايا والمرداة وما الى ذلك .

Scanned by CamScanner

الفصل الثالث

عَبيد بن الابرص ـ الحارث بن حِلّزة
عمرو بن كُلْثوم

ا ـ عَبيد بن الأبرص :

١ً حياته : كان عَبيد من ندماء حُجْر الكندي والد امرئ القيس ، وقد شفع عنده في قومه عندما امسكوا عن دفع الإتاوة وحبس اشرافهم . ثم اتصل ببلاط الحيرة حتى قتله المنذر بن ماء السماء نحو سنة ٥٥٤ .

٢ً آثاره : له ديوان أشهر ما فيه المعلّقة ، وأكثرها في الوصف .

٣ً فنّه : وصفه مليء بالحياة، يجري على اسلوب كثير المرونة، تتصاعد منه موسيقى شعريّة أخّاذة .

ب ـ الحارث بن حلّزة :

١ً حياته : هو من عظماء البكريين ، دافع عن قبيلته في حضرة عمرو بن هند ، وتغلّب على عمرو بن كلثوم . وقد توفي نحو سنة ٥٨٠ .

٢ً آثاره : معلّقة تقع في ٨٥ بيتاً قالها للدفاع عن قومه عند عمرو بن هند وهي تقسم الى ثلاثة اقسام كبرى : مقدّمة غزلية ، دفاع ، استمالة عمرو بن هند .

٣ً فنّه : في معلّقة ابن حلّزة فنّ خطابي ينطق بقوّة الفكرة وقوّة الحجّة وبلاغة اللهجة ؛ وفنّ ملحمي ينطق بالقصص والوصف الحسّي ويزخر بالفوائد التاريخية .

ج ـ عمرو بن كلثوم :

١ً حياته : نشأ في بيئة عزيزة فامتلأت نفسه بامجاد تغلب قبيلته ، ثم دافع عن قبيلته في حضرة عمرو بن هند ملك الحيرة مفاخراً البكريّين ، وفي سنة ٥٦٩ قتل عمرو بن هند ، ثم توفي نحو سنة ٦٠٠ بعد ان شبع من الايام .

٢ً آثاره : معلّقة تقع في نحو ١٠٠ بيت ، أنشدها في حضرة عمرو بن هند وعلى أثر قتله له . وهي تقسم قسمين كبيرين يحتوي الاول منهما المفاخرة ، والثاني الثورة على ابن هند .

٣ً فنّه : في معلّقة عمرو بن كلثوم ثورة العاطفة ، وثورة الفكر ، وثورة الخيال ، وثورة اللفظ .

Scanned by CamScanner